باب

فى ذكر بعض ما ورد فى مدح النساء، والأمر بالرفق بهن والاعتناء

لم يذكر الله تعالى نساء الدنيا بصفة مدح لهن بجمالهن وحسن صورتهن، بل ذكرهن بما أرفع وأعلى من ذلك وهو الصلاح والعفة والأمانة وغير ذلك من الصفات الشريفة التى هى المطلوبة من المرأة فقال تعالى (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) وإنما ذكر نساء الجنة بأوصاف خلقية لأنها دار تشريف لا دار تكليف، وليكون ما وصفهن به وسيلة لاقتداء نساء الدنيا بهن مما يمكن الاقتداء به فقال تعالى (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربًا أترابا) أى أن الله سبحانه وتعالى أوجدهن مرة واحدة من غير ولادة ما آباء وأمهات وجعلهن أبكارا دائما كلما دنا منهن أزواجهن وجدوهن أبكارا من غير أن يجدن ألم البكارة عند التماس لأن الجنة منزهة عن الآلام والأقذار وقوله تعالى عربًا أى متحببات لأزواجهن وأترابًا أى بسن واحدة لا تفاوت بينهن. وفى هذه الآية دليل على أن المطلوب من الزوجة أن تكون بكرًا وأن تكون متحببة لزوجها متناسبة فى السن معه وفى هذا حصول الألفة ودوام العشرة وقال تعالى (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) أى إن نساء أهل الجنة لا يتطلعن لغير أوزاجهن بل هن مقتصرات عليهم لا يردن بهم بديلا. وهكذا ينبغى أن تكون المرأة فى الدنيا لا تطمح نفسها لغير زوجها كيفما كان وقال تعالى (حور مقصورات فى الخيام لم يطمسهن إنس قبلهم ولا جان) وصف الله تعالى نساء الجنة بملازمتهن لمساكنهن لا يخرجن منها وإنهن لهن قبل أزواجهن غيرهم، وفيه الإشارة إلى لزوم النساء بيوتهن وإلا كتفل بأزواجهن لا أن يخرجن من بيوتهن تابعات لأهوائهن، ولا أن يرغبن عن أزواجهن لغيرهن بأن يخاصمنهم حتى يحملنهم

على تطليقهن ليتزوجن بغيرهم، فالمرأة ليست كفوطة الحمام تنقل من وسط مغتسل إلى وسط آخر، ولذلك كان بين البكر والثيب فرق فى المعاملة فى ابتداء الزواج بحكم الشرع، وهذا الفرق ناشئ عن التفاوت بين البكر والثيب. فعلى المرأة أن تحرص على أن تكون زجة لزوج واحد لا لأكثر فهو أكمل لها وأجمل بها وقال تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) أى إن أزواج أهل الجنة ليس فيهن ما يؤلف منهن من حيض واستحاضة ونفاس ومرض رحم ونتن عرق وقذر بدن ووساخة ثوب أو مكان وغير ذلك، بل هن طاهرات نظيفات وفيه الإشارة إلى أنه يلزم النساء أن يكن كذلك فلا تتأخر الحائض عن التطهر عند ما ينقطع حيضها، وذلك عند نفاسها، وفى جميع الأحوال التى تقتضى فيها النظافة وكل هذا ممكن لهن والذى ذكره الله تعالى عن النساء فى القرآن إنما هو أمر لهن ونهى وإخبار عما سلف من أحوال النساء الحسنة والسيئة ليعتبرن ويتصحن، لأن المطلوب من المرأة الدين والأخلاق الحسنة وحسن الإدارة والإطاعة للزوج وحسن القيام على رؤية أمور المنزل وغير ذلك من الواجب عليها، وأما الجمال والمال والحسب والأصالة فهى فى الدرجة الثانية بعد الدين، فإذا اجتمعت لها هذه الأربعة مع الدين كانت نورًا على نور كما قال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والأفلاس بالناس

وأما ما ورد من الأحاديث الشريفة فى مدح النساء والأمر بالرفق بهن والعناية بشأنهن فمنها حديث: "حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة" - رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أنس بن مالك - وحديث: "كلما ازداد المرء إيمانًا ازداد حبًا فى النساء" وحديث: "ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم" - رواه ابن عساكر

عن على بن أبى طالب - وحديث: "إنما النساء شقائق الرجال" - رواه الإمام أحمد بن حنبل وأبو داود والترمذى عن عائشة والبزار عن أنس - وحديث: "الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" - رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص - وحديث: "هن أغلب" - رواه الطبرانى عن أم سلمة - وحديث: "أمركن ممن يهمنى بعدى وليس عليكن إلا الصابرون" - رواه الحاكم عن عائشة - وحديث: "الحياء عشرة أجزاء فتسعة فى النساء وواحد فى الرجال ولولا ذلك ما قوى الرجال على النساء" - رواه الديلمى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما - وحديث: "النساء خلقن من ضعف وعورة فاستروا عوراتهن بالبيوت واعلنوا على ضعفهن بالسكوت" وحديث: "حاملات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين لأزواجهن دخل مصلياتهن الجنة" - رواه الإمام أحمد وابن ماجة والطبرانى والحاكم عن أبى أمامة - وحديث: "آمروا النساء فى بناتهن" - رواه أبو داود والبيهقى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما - وحديث: "اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة" - رواه ابن عساكر عن عبد الله بن عمر - وحديث: "احملوا النساء على أهوائهن" - رواه ابن عدى عن عبد الله بن عمر - وحديث: "إنى أخرج عليكم حق الضعيفين المرأة واليتيم" - رواه الحاكم والبيهقى عن أبى هريرة - وحديث: "استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوان (أسيرات) عندكم لستم تملكون منهن غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا" - رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة -

وحديث: "رفقًا بالقوارير" - رواه البخارى - وحديث: "عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن فإن غضب الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم" وحديث: أطعموهن مما تأكلون واكسوهن مما تكسون ولا تضربوهن ولا تقبحوهن" - رواه أبو داود عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده - وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما أنه وجدت امرأة مقتولة فى بعض المغازى فبلغ رسول الله ﷺ قتلها فنهى عن قتل النساء والصبيان.

وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ وهو فى مرض موته أن قال: "الله الله فى النساء فإنهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئًا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله واستوصوا بهن خيرًا".

معنى أحاديث الرفق بالنساء

قال الكمال أحسن الله تعالى إليه: وبعض الفسقة يحفظون من الأحاديث الشريفة أحاديث يؤولونها حسب أهوائهم، ويجعلونها حجة لهم ووسيلة إلى اقتناص أوابد النساء كحديث "حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء" مقتصرين على هذين الشيئين من غير حفظ بقية الحديث وهى "وجعلت قرة عينى فى الصلاة" وحديث "كلما ازداد المرء إيمانًا ازداد حبًا فى النساء" وحديث "ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلى لئيم" وحديث "إنما النساء شقائق الرجال" وحديث "رفقًا بالقوارير" ويتوسلون بها إلى إغواء النساء وإفسادهن تحت ستار الدين، والاستشهاد بقول رسول رب العالمين، وليس مورد الأحاديث المذكورة هو كما يؤلونه ويريدونه كلا وإنما حب النساء وإكرامهن والرفق بهن إنما يكون بتعليمهن أمور دينهن وحفظهن وصيانتهن من كل ما يلوث عفتهن ويدنس شرفهن لا بترك حبلهن على

غاربهن وابتذالهن وهتك سترهن بإطلاق السراح لهن يغشين مسارح اللهو وبؤر الفسق والفجور، ويحالطن الرجال ويخاصرنهن ويرقصن معهم ويشربن الخمور، وهل يقال لمن عنده درة ثمينة ألقاها فى المزابل إنه احترمها وصانها أم إنه هو ابتذالها وامتهنها؟ فاعلم ذلك ولا تصرف قول الرسول المعصوم ﷺ الذى جاء بالهدى والنور إلى ما يوافق الهوى والشهوة. وعلى المرأة أن تعلم وتفهم أن كل معاملة لها يوافق الشرع عليها فهى إكرام لها وصيانة لعرضها وحفظ لشرفها سواء أكانت تلك المعاملة قاسية أو لينة، وأن كل معاملة لها لا يوافق الشرع عليها فهى إهانة لها وانتهاك لحرمتها وابتذال لشرفها سواء أوافقتها أم لم توافقها، والنفس أمارة بالسوء ميالة إلى اللهو إلا من رحم الله قال رسول الله ﷺ "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" - رواه الإمام أحمد بن حنبل ومسلم والترمذى عن أنس ومسلم عن أبى هريرة أيضًا وأحمد عن ابن مسعود أيضًا

وأما ما ورد من مدحهن والهناية بهن من غير الآيات والأحاديث فكثير أيضًا فى القديم والحديث قال قونفورشيوس وكبير البراهمة المتوفى قبل سيدنا عيسى عليه السلام بنيف أربعة قرون: المرأة أكمل المخلوقات. وقال بعض الحكماء: ما آنس الإنسان ولا عمر المكان ولا سلى الأحزان ولا أعان على نوب الزمان مثل البيض العوان (النساء) وقال آخر: المرأة مرآة الأمم. وقال آخر: المرأة ريحانة لا قهرمانة وقال آخر: فاقت المرأة الرجل بحسن خلقها ولطف خلقها فإذا فاقته فى العلم والفضيلة لم يبق للرجل عليها سوى قوة ضئيلة. وقال بعض الشعراء:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين

وقال الكمال أحسن الله تعالى إليه: الدنيا دار سكنى بالإجارة رجالها قاعة الزيادة والنساء فيها ضياء، وليس لأحد عن النور استغناء:

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها وعيش بنيها فى لقاء بناتها

وقد أكثر الشعراء فى القديم والحديث من ذكر النساء والتشبيب بهن فلا تخلو قصيدة من أن تفتتح بذكرهن، والناس يتلقون ذلك بالقبول والاستحسان حتى إن كعب بن زهير مدح رسول الله ﷺ بقصيدته المشهورة ببانت سعاد وتغزل فيها بذكر سعاد وسمعها رسول الله ﷺ منه فلم ينكر عليه شيئًا منها. وهذا من مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالرياح معلول

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومن احترام النساء وتكريمهن أن أبا الفضل ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ وغيرهما وهما من الأدب فى المكانة العليا كانوا يكنون عن البنت الكبيرة بالكريمة، وعن البنت الصغيرة بالريحانة، وعن الإثم بالحرة، وعن الأخت بالشقيقة وعن الزوجة بكبيرة البيت، أو يمن وراء الستار وعن الزفاف بتألف الشمل، واتصال الحبل. والترك يعبرون عن الزوجة بالرفيقة، والعرب يكنون عنها بالحيلة والظعينة والقرينة والقعيدة، وقعيدة البيت والربض والحنة والطلة والكنة - بفتح الطاء والكاف - والعرص والسكن واللباس والإزار وقد جاء القرآن الكريم بوصف الزوجين باللباس فقال تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وأهل مصر يخاطبون الزوجة ويعبرون عنها بالست فيقول الزوج لزوجته: يا ستى ويخبر عنها فيقول ستى قالت وستى فعلت. قال الشاعر الأديب بهاء الدين زهير المصرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ:

بروحي من أسميها بستي فتنظر لي النحاة بعين مقت

يرون بأنني قد قلت لحنا وكيف وإنني لزهير وقتي

ولكن غادة ملكت جهاتي فلا لحن إذا ما قلت ستي

وكل هذه الكنايات من حرص الرجال على أن لا تذكر النساء بالأفواه، وتبتذل بالأسماع، فضلا عن أن يطلع على مسمياتهن، أو يتعرض لهن بذاتهن. وإنما يضن بالضنين وينافس بالثمين.

باب

فى مدح النساء من حيث أنهن إناث وللحياة من أنفس الأثاث

ليس فى هذا الباب أفضل ولا أصدق من قول الرسول الأعظم ﷺ

"البنات هن المشفقات المجهزات المباركات، من كانت له ابنة واحدة جعلها الله له سترًا من النار، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله الجنة بهما، ومن كانت عنده ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة" وقوله: "من من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة" - رواه ابن ماجه والحاكم وابن حبان عن ابن عباس - وقوله: من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه أى معًا" - رواه مسلم عن أنس - وفى حديث آخر "إذا ولدت الجارية بعث الله عز وجل إليها ملكًا يزف البركة زفًا يقول ضعيفة خرجت من ضعيفة، القيم عليها معان إلى يوم القيامة، وإذا ولد الغلام بعث الله إليه ملكًا من السماء فقبل بين عينيه وقال الله يقرؤك السلام" وفى حديث آخر "من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة" - رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى - "وفى حديث آخر "من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار" - رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة -

ودخل عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٣ على معاوية بن أبى سفيان المتوفى سنة ٦٠ رضى الله تعالى عنهم وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف، فقال له أمطها عنك قال معاوية ولم؟ قال عمرو لأنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الشحناء ويثرن البغضاء، قال معاوية لا تقل ذلك يا عمرو فوالله ما مرض

المرضى ولا ندب المتوتى ولا أعان على الزمان ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن، وإنك لواجد خالا قد نفعه بنو أخته، وأبا قد رفعه نسل بنته، فقال عمرو ودخلت عليك يا معاوية وما على الأرض شيء أبغض إلى منهن وإنى لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلى منهن. وقال معن بن أوس المتوفى سنة ٦٣:

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا نكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يفتكن بالفتى خوادم لا يمللنه ونوائح

وقال عمران بن حطان الدوسى المتوفى سنة ٨٩:

لقد زاد الحياة إلى حبًا بناتى إنهن من الضعاف
مخافة أن يذقن البؤس بعدى وأن يشربن رنقا بعد صافى
ولولاهن قد سومت مهرى وفى الرحمن للضعفاء كافى

وقال حطان بن معلى الأسدى:

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عينى من الغمض

وقال الكمال (مؤلف الكتاب) أحسن الله تعالى إليه فى ابنته أمة الرحيم وهى بنته الوحيدة العجبة وقتئذ أى اليتيمة من الأم وقد ولدت سنة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢١ م:

يارب بنتى من الضعاف والحال ليس عليك خافى

يارب حطهـــا وقم عليـــهـــا　　بالصـــون والســـتـــر والعـــفـــاف

وقال فيها أيضًا وقد ترعرعت:

يارب بنـتى فى حـــمـــاك وديعـــة　　من كل شىء فى الحيـــاة يشينهـا

يارب أنبـــتـــهـــا نبـــاتًا طـيـــبًـــا　　بجـــمـــال حـــال فى الأنام يزينهـــا

وأتح لهـــا بعـــلا إذا أبقـــيـــتـهـــا　　بعـــفـــافـــه وتقـــاه رب يصـونهـــا

ثم جاءته هبـة الكريم درية من زوجة أخـرى سنة ١٣٥٢ هـ ابتلاها الله بيتمها من أمها وهى بنت سبعة أشهر جبر الله يتمها ورحم أمها. وقالل رجل من العـرب لامرأته وقـد ولدت له بنتًـا: ولدتها تمان ولا تمون، وتصـان ولا تصون، وتزدريهـا العيـون فقالت بل ولدتـها تكثر مـال أهلها، وتعـمر بيت بعلها، وتسره بدلها * وغاضت رجل من العرب زوجته واعتزلها لأنها ولدت له بنتًا فقالت:

مـــا لأبى حـــمـــــزة لا يأتينا　　يظـل فى البـــــيت الـذى يلـينـا

يـغـــــضـب أن لا نلـد البـنـينـا　　وإنمـا نأخـــــذ مـــــا أعطـينـا

وباخـــتـــيـــار الله قـــد رضـــينا

فأعجبه قولها واتعظ به فرضى عنـها ورجع إليها. وعيرت أعرابية ببنت ولدتها فقالت:

مـــاذا على إن ولـدت جـــارية　　تمشـط رأسى وتـكون فـــاليـــه

خـــيـــر من ابـن عـــاره عـــلانيـــه　　يجـــــر فـى كل أوان داهيـــــه

وقالت امرأة أخرى من العرب بهذا الخصوص:

ومـــا علـى أن تكـون جـــارية　　تحـــفظ بيـــتى وتـضىء نـاريه

وترفع الساقط من خماريه حتى إذا تمت لها ثمانية

أو تسعة من السنين الوافية زوجتها مروان أو معاوية

أزواج صدق ومهور غالية

وقال بعض الشعراء:

أحب البنات وحب البنا ت فرض على كل نفس كريمه

فإن شعسا من أجل ابنتيـ ـه أخدمه الله موسى كليمه

يشير إلى قوله تعالى (قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرين ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك) الآية. وليس سيدنا موسى عليه السلام باول من آجر نفسه للخدمة فى سبيل التزوج بدلا من المهر، بل سيدنا يعقوب عليه السلام قبله تزوج ببنت خاله واسمها راحيل بخدمته لخاله سبع سنوات كما ذكره ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٢٦ فى كتابه المعارف.

وقال الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه يحر البلاغة: الدنيا مؤنثة والناس يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب، والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا تحرك الأنام. والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون أ هـ وكتب الصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ مهنئًا ببنت: أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد طهار، وتمثل بقول المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤

ولو كـــان النســـاء كـمـــثل هذى لفـضلت الـنســـاء على الرجـــال

فـــمـــا التـــأنيـث لاسم عـــيـــبًـــا ولا التـــذكـيـــر فـــخـرًا للهـــلال

وكتب أبو الفرج الببغاء عبد الله بن نصر المتوفى سنة ٣٩٨ مهنئًا بأنثى: اتصل بى خبر المولودة المسعودة كرم الله غرتها وأنبتها نباتًا حسنًا، وما كان من تغيرك عند اتصـال الخبر، وإنكارك ما اختاره الله تعـالى لك فى سابق القدر، وقد علمت أنهن أقرب من القلـوب، وأن الله عز وجل بدأ بهن فى الترتيب، فقال عز من قائل (يهب لمن يشاء إنـاثًا ويهب لمن يشاء الذكور) وما سماء الله تعالى هبة فهو فبالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى أ هـ والعرب يقولون لمن تولد له الجارية: هنيئًا لك بالنافجة (النافجة وعاء المسك).

باب

فى مدح المرأة من حيث أنها زوجة عاقلة، وربة بيت فاضلة

فى الحديث الشريف: "خير النساء التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره" - رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن أبى هريرة - وفى حديث آخر "خير نسائكم العفيفة الغلمة، عفيفة فى فرجها، غلمة على زوجها - رواه الديلمى عن أنس - وفى حديث آخر "من رزق حسن صورة وحسن خلق وزوجة صالحة وسخاء فقد أعطى حظه من خيرى الدنيا والآخرة" وفى حديث آخر "أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة، لسان ذاكر وقلب شاكر وبدن على البلاء صابر وزوجة صالحة لا تبغيه خوفًا فى نفسها ولا ماله صالحة تعين أحدكم على دينة" - رواه الطبرانى والبيهقى عن عبد الله بن عباس - وفى حديث آخر "أربع خصال من سعادة المرء، أن تكون زوجته صالحة وأولاده أبرار وخلطاؤه صالحين ومعيشته فى بلده" - رواه ابن عساكر والديلمى عن عبد الله بن الحاكم عن أبيه عن جده - وفى حديث آخر "أربع من السعادة، المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنىء" وفى حديث آخر "خير ما يكنز الرجل المرأة الصالحة إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته" وفى حديث آخر "الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المراة الصالحة" - رواه الإمام أحمد بن حنبل ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمر بن العاص - وفى حديث آخر "من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى" - وراه الحاكم عن أنس - وفى حديث آخر "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها

نصحته فى نفسها وماله" - رواه ابن ماجه عن أبى أمامة الباهلى - وفى حديث آخر "إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلى من أى أبواب الجنة شئت" - رواه ابن حبان عن أبى هريرة -

وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تبنى بيتها والمرأة السفيهة تهدمه. وقال حكيم: الجمال كاذب والحسن مخلف وإنما تستحق المدح المرأة الموافقة. وقال آخر: الهناء كله موكل بالحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء. وقال الأصمعى المتوفى سنة ٢١٣: حدثنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير قال ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله تعالى بمثل منكح صدق، ولا وضع نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء. وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ رضى الله تعالى عنه: المرأة الصالحة تشبه الوالدة والأخت والصديق، والمرأة السوء تشبه الرابة. (زوجة أبى الولد) والعدو والسارق. وقال الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ فى إحدى مقاماته: القرينة الصالحة ترب بيتك، وتلبى صوتك، وتغض طرفك، وتطيب عرفك، وبها ترى قرة عينك، وريحانة أنفك، وفرحة قلبك، وخلد ذكرك. وقال الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى سنة ٩٥ لا يوب بن القرية البليغ المتوفى سنة ٨٤ ما تقول فى التزويج؟ قال: وجدت أسعد الناس فى الدنيا وأقرهم عينًا وأطيبهم عيشًا وأبقاهم سرورًا وأرخاهم بالا وأثبتهم شبابًا من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة وإن قتر عليها وجدها قانعة وإن غاب عنها كانت له حافظة وقد ستر حلمها جهلها وزين دينها عقلها فزوجها ناعم وجارها سالم ومملوكها آمن وصبيها طاهر فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التى لم تثقب

والمسكة التى لم تفتق قوامة صوامة ضاكحة بسامة إن أيسرت شكرت وإن أعسرت صبرت فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجره فى الأرض جراً فبعلها مشغول، وجارها مستبول، وصبيها مرذول، وقطها مهذول، وفى لسان العرب لابن منظور الأفريقى المتوفى سنة ٧١١ خير النساء الخفرة فى قومها المتبذلة لزوجها. يعنى التى لا تتصنع له فى قول ولا عمل. وقال مسلمة بن عبد الله المرأة الصالحة خير للمرء من عينيه ويديه. وقال بعض السلف: المرأة الصالحة إحدى الحسنيين. وقال حكيم: سعادة الأسرة تتوقف على المرأة أكثر من توقفها على الرجل. وقال آخر: المرأة الجميلة تملك القلوب والمرأة الفاضلة تسترق العقول وقال بعض العارفين: الزوجة قوت النفس، وسبب طهارة القلوب. وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقبل امرأته فى رمضان فقال "لا بأس ريحانة يشمها" وقال الشاعر:

سعادة المرء فى خمس لقد جمعت ... صلاح جيرانه والبر فى ولده

وزوجة حسنت أخلاقها وكذا ... خل وفى ورزق المرء فى بلده

وقال بعض العارفين: المرأة الصالحة أقر متاع الدنيا لعين المرء ولا يسكن لشىء كسكونه لزوجته. وقد صدق فقد قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) وقال عز وجل (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها) وللزوج من زوجته منزلة رفيعة لا سيما إذا كان موافقًا لها فى هواها، عاملا بما فى رضاها، مجاريًا لها على ما تريد. ففى الحديث الشريف "إن للزوج من المرأة لشبعة ما هى لشىء" رواه الحاكم وابن ماجه عن محمد بن عبد الله ابن جحش - والمراد بما تقدم من ذكر الزوجة الصالحة ذات الدين والفكرة الطاهرة والشعور الشريف والخلق

اللطيف والأخلاق الكريمة والصبر الجميل والعفة الحقيقية والنظافة الدائمة فى نفسها وملبسها ومسكنها. وأولادها المواتية لزوجها الموافقة له المعينة فى المنشط والمنكره لما يريده. المؤدية ما يجب له عليها بعد تأديـة واجبها لربها من طهارة وصلاة وصيام، القائمة بلازم بيتها من عمل بالذات أو نظارة عليه إذا كان لها خدم يقمن به، المحبة لزوجها محبة لا تبـغى معها بدلا منه مهما يكن زوجها وضيعًا وغيره رفيعًا، فهذه هى المرأة الصالحة التى تكون سبب السعادة لزوجها وأولادها ولا يشترط فيـها أن تكون غنية أو شريفة فى قومهـا بل مجرد دينها وأدبها كافيان لهـا يغنيانها عن غيرهما. وكم أعلم من امرأة فـقيرة بل خادمة تزوجت بفقير فكانت سببًا فى انعاشه وإنقاذه من مخالب فقره حتى وصل إلى درجة الـوجوه والأعـيان، وصـار منزله لوفود الرجـال من جمـيع الطبقـات وأصبحت زوجـته تلك الخادمة الفقيـرة ستًا كبيـرة أو سيدة جليلة وليس هذا بالأساطير ولا الخرافات ولا الأقـاصيص، بل هو شىء حق شاهدته بعينى لم أسمع به بأذنى. وبالعكس منها كم أعلم من امرأة غنيـة وزجها على شاكلتها ما زالت تعـمل أعمـال البذخ والسفـه والسرف حـتى أهلكت زوجهـا بسوء إدارتها مـالا وحالا فأمسى فى حـالة يرثى لها، وكانت عاقـبة أمرهما خـسرًا وهلاكًا نعـوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن سوء الإدارة المؤدية للـخسارة. والمرأة عنوان كل خير وشره، ومجمع بحرى النفع والضر، إذا صلحت صلح كل ما تتعلق به ويتعلق بها، وغذا فسدت فسد الجميع والله الحافظ الواقى.

باب

فى مدح المرأة من حيث الحمل والولادة، وما تجرى فيه بذلك العادة

لما كان القصد من الزواج حصول النسل وبقاء أفراد العالم إلى آخر الوقت المقدر له، ولا يحصل ذلك إلا بكلفة ومشقة على النساء من الحمل والوحام والطلق والولادة والنفاس والإرضاع وتربية الولد وفطامه، تفضل الله تعالى على المرأة التى تبتلى بحمل هذه المشاق والشدائد بالفضل العظيم من نحو إيجاب الشكر على الولد لأمه أولا ثم لأبيه ثانيًا كما قال الله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وتقديم الأم على الأب بالبر والشكر مفهوم من الأحاديث الشريفة كحديث "أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب" - رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن معاوية بن حيده وابن ماجه عن أبى هريرة - ومن نحو ما ورد فى الأحاديث الشريفة مما أعده الله للمحاملات والوالدات كحديث "المرأة فى حملها إلى وضعها إلى فصالها كالمرابط فى سبيل الله، فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شديد" - رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر - وحديث "المرأة إذا حملت كان لها أجر الصائم القائم المخبت المجاهد فى سبيل الله، فإذا ضربها الطلق فلا تدرى الخلائق ما لها من الأجر، فإذا أرضعت كان لها بكل مصة أو رضعة أجر نفس تحييها، فإذا فطمت ضرب الملك على منكبها وقال استأنفى العمل" وحديث "الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله، المقتول فى سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذى يموت تحت الهدم شهيد،

والمرأة تموت بجمع[1] شهيد" - رواه الإمام مالك وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن جابر بن عبد الله - وحديث "أما ترضى إحداكن أنها إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم فى سبيل الله، فإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين، فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة ولم يمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة وبكل مصة حسنة، فإن أسهرها ليلة كان لها مثل أجر سبعين رقبة تعتقهم فى سبيل الله" - رواه الطبرانى وابن عساكر والحسن بن سفيان عن سلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

والحمل والولادة أمران صعبان، والتهلكة فيهما ملحوظة قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: رسول الموت الولادة. وقد صدق فيما قال فكم من حامل ماتت وهى تلد أو فى أثناء نفاسها، ولذلك كان فضل الله تعالى على النساء عظيمًا، لو عرفن ذلك الفضل فقدرنه حق قدرته وشكره حق شكره. وينبغى أن تطعم النفساء التمر فى أثناء نفاسها، فإن من كان طعامها فى نفاسها التمر كان ولدها حليمًا (وفى هذا الحديث).

فوائد لتسهيل الولادة

العمدة فى هذا الباب على ما عند القابلة الطيبة من العلم والمعرفة بحسب ما تعلمته وقد ترقى فن الطب ترقيًا زائدًا سهل على كل والدة ولادتها، فيجدر بالحامل أن تستحضر القابلة الطبيبة لا أن تسترسل فى اتباع ما هو مألوف عندها وعند أهلها من أنها لا تبغى بالقابلة فلانة العجوز بدلا حيث أنها ولدتها وولدت من ولدتهم من أهلها فأن كونها ولدتهم ليس يقتضى التمسك بها ما دام فى الإمكان تسهيل أمر الوالدة باستخدام القابلات

(١) جمع بضم الجيم وسكون الميم أى تموت وهى حامل.

الطبيبات. وكم من تهلكة وقعت فيهـا الحامل بسبب تمسكها بقديمات الصنعة من غير علم ولا معرفة فـقاست من الأهوال، وصرفت من الأموال ما كانت فى غنى عنه، ومع هذا فلا مـانع من استعمال مـا جاء فى كتب الطب المادى والروحانى من الفوائد المسهلة للولادة لا سيمـا فى الأماكن التى لا يوجد فيها قابلات طبـيبات. وقـد ذكرت فى كتابى (الفـوائد الكمالية فـى المنافع الدينية والدنيـوية) قسمًـا منه وهذا هو: ذكر الشـريشى المتوفى سنـة ٦١٩ فى شرح المقامة العمانية من المقامـات الحريرية عن ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ بسند متصل بسيدنا عبد الله بن عـباس المتوفى سنة ٦٨ رضى الله تعالى عنهما أنه قال: مر عـيسى ابن مريم عليهـما السلام على بقر قـد اعترض ولدها فى بطنهـا فقالـت يا كلمة الله ادع الله أن يخلصنى، فـقال: ياخـالق النفس من النفس، ويا مخـرج النفس من النفس، خلصهـا. فألقت ما فى بطنهـا. فإذا تعسرت على امراة ولادتهـا يكتب ذلك فى إناء ويمحى بماء وتسقاه وعن ابن عباس أيضًا أنه يكتب لمتعسرة الولادة فى جام (قدح) وتسقاه؛ بسم الله لا إله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا ساعة من نهـار، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وأخرج البيهـقى المتوفى سنة ٤٥٨ فى كتاب الدعوات عن ابن عبـاس موقوفًا فى المرأة التى تعسرت عليها ولادتها أنه يكتب فى قرطاس ثم يمحى وتسقى، بسم الله الذى لا إله إلا هو الحليم الحكيم، سـبحان الله وتعـالى رب العرش العظيم، الحـمد لله رب العـالمين (كأنهم يوم يرونهـا لم يلبثـوا إلى عشـية أو ضحاها، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبـثوا إلا ساعة من نهار فهل يهلك إلى القوم الفاسـقون) وعنه أيضًا أن من عسر عليـها النفاس أو الولادة يكتب لها فى إناء جديد ويـمحى ويمسح به بطنها والموضع الطاهر من فـرجها (إذا

السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، لقد كان فى قصصهم عبرة لألى الألباب، ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ذكره الجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فى كتابه الرحمة فى الطب والحكمة وقال إنه صحيح مجرب وذكر فى الاقان برواية ابن السنى المتوفى سنة ٣٦٢ عن فاطمة رضى الله تعالى عنهما أنها لما دنت ولادتها أمر رسول الله ﷺ زوجتيه أم سلمة وزينب بنت جحشَ أن تأتياها فتقرأ عندها آية لكرسى وقوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدون أفلا تذكرون) وأن تعوذاها بالمعوذتين* وفى كتاب نزهة المجالس للصفورى المتوفى آخر القرن التاسع أنه تسقى معوقة الولادة أربعة مثاقيل من قشر خيار الشنبر اليابس، أو درهمين من الزعفران، فإنها تلد سريعًا وأنه ينبغى لمن قربت ولادتها أن تستحم كل يوم. وفى كتاب تسهيل المنافع إذا عقدت مرجانة تخيط فى فخذ المرأة اليسرى يخرج الولد سريعًا، وإن شرب ثلاثة دراهم من القرفة يسهل الولادة فى الحال، وإن التبخر بشعر نفسها يسهل خروج الولد* وفى شرح المقامات الحريرية للشريشى أن الزبد البحرى (وهو حجر رخو رقيق شديد البياض) إذا علق على المرأة التى أخذها الطلق سهل ولادتها. وشرب السعتر المنقوع بالماء يومًا وليلة وشم الزعفران والتبخر بحافر حمار أو بذبله أى روثه وشرب درهمن من زهر الياسمين إلا بيض أو أربعة مثاقيل من قشر خيار والشنبر اليابس، أو شرب درهمين من الزعفران كل ذلك يسهل الولادة.

فصل فى الحبل والعقر والعقم والإجهاض والحيض

القصد من الزواج التناسل وتكاثر أفراد ليبقى إلى آخر اليوم المعين لبقائه، فإذا أراد الله تعالى إنهاء العالم وإفناء أوحى إلى الأرض أن لا تنبت، وإلى الأرحام أن لا تحمل. فيأخذ الموجود فى النقصان إلى أن يعتريه الفناء، وما دامت الأرض تنبت والأرحام تحمل فإن وقعت نهاية العالم لم يحن بعد ولم يجىء. ومن فضل الله تعالى أن جعل النساء يحبلن ويلدن لبقاء العالم إلى نهاية وقته المراد وأقل القليل منهن التى لا تحبل إما لمانع طبيعى أو عرضى، ولكن ليس فى الإمكان الحكم على امرأة ما قبل النكاح والدخول بها أنها تحمل وتلد أولا، وإنما يستأنس لذلك بالقياس على ذوات قرابتها فى الغالب. والحبل معلوم لا يحتاج إلى تعريف، والصفة منه حابلة وحبلى وحبلانة، ولم ترد هذه المادة فى القرآن ولا فى الحديث على ما أعلم وإنما الذى ورد الحمل وما يشتق منه. والعقر أن لا يكون فى المرأة قابلية الحمل والولادة ولا يعرف ذلك إلا بعد دخولها فى سن الإياس وهو سن انقطاع حيضها، والصفة منه عاقر قال الله تعالى (ولو كانت امرأتى عاقراً) والعقم موت كل من الزوجين بلا ولد سواء أكان لهما ولد ومات فى حياتهما أو لم يكن لهما أصلا، والصفة منه عقيم. والإجهاض تعمد إسقاط الجنين لسبب ما وهو حرام وبمثابة قتل النفس لا سيما إذا تخلق ودبت فيه الروح، وجناية تعاقب المحاكم عليها فاعلته، ولا يجوز بحال من الأحوال ولو كان الجنين من سفاح. وإثمه على أبويه ليس على الولد منه شىء، والمعاونة على إسقاط الجنين والدلالة على كيفية الإسقاط فى الإثم والجرم كالإجهاض. وأما سقوط الجنين من غير تعمد إسقاطه فلا إثم فيه لأنه من علة فى الرحم مانعة من بقاء الجنين ونموه فيه، ويجب على المبتلاه بسقوط جنينها التداوى. والحيض هو دم

يخرج من رحم امرأة بالغة سليمة من الأعذار فى أوقات معينة، وتحرم معه الصلاة والصيام والطواف وقراءة القرآن ودخول المساجد وقربان الزوج ما تحت إزار زوجته حتى تطهر. ومدة الحيض ومدة الطهر معروفتان عند كل امرأة بحسب حالها، ولا مانع من أن ينام الزوج مع زوجته فى فراش واحد وهى حائض ما دام يملك شهوته، وإن خاف غلبة شهوته عليه فعليه أن ينام منعزلا عنها حتى تطهر. ومن الغريب فى حالة الحائض ما ذكره ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» أن المرأة - الطامث أى الحائض - تدنو من اللبن لتسوطه - أى تخلطه - وهى منظفة الكف والثوب فيفسد اللبن! وقد تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس فيه من غير أن تمسها ا هـ.

واليهود يأنفون من الحائض ويجتنبونها كل الاجتناب فى أثناء حيضها فلا يجالسونها ولا يضاجعونها ولا يؤاكلونها ولا تطهر عندهم إلا باغتسالها بالماء البارد، ولو صادف حيضها أيام البرد القارص، وليس فى الإسلام شىء من ذلك إلا اعتزال ملامستها فيما دون الإزار حتى تطهر، ويكفى فى الشرع الإسلامى انقطاع حيضها لقربها وإن لم تغتسل ما جعل الله عليكم فى الدين من حرج).

فوائد للحبل وحفظ من السقوط

وهذه بعض فوائد تعين على الحبل وتحفظ الجنين من السقوط نقلا عن كتابى (الفوائد الكمالية فى المنافع الدينية والدنيوية) قال ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ فى كتابه العقد الفريد: كل امرأة أو دابة تبطئ على الحبل؛ إذا واقعها الفحل أو الرجل فى الأيام التى يجرى فيها الماء فى العود فإنها تحبل فإذن الله تعالى ا هـ وفى كتب الطب والخواص أن التحمل بالأنفحة أيا كانت

بعد الطهر من الحيض، أو شرب المرأة لبن فرس وهى لا تعلم ثم وطؤها عقبه، وأكل الرجل خصية الأوز ثم وطؤها عقبه وتحمل المرأة بالخزامى بعد الطهر من الحيض ثلاثة أيام متوالية، وشربها مغلى القرنفل ثلاثة أيام متوالية كل يوم درهمين بعد الطهر، كل ذلك يعين على الحبل إذا لم يكن فى أحد الزوجين مانع يمنع منه. وشرب مغلى الكمون يقى الجنين من السقوط. وفى الطب الحديث وسائل كثيرة للحبل ووقاية الجنين فعلى من هو مبتلى بشىء من ذلك أن يراجع الأطباء المختصين بذلك ويعمل بما يقولون.